يحيي يخلف

مقامة من كتاب الزيت

— ١ —

تلوث البحر ذات صباح .

افرغت احدى حاملات النفط ما لا حصر له من براميل الزيت فوق سطحه الازرق المتموج ..

وتكاثف الزيت الدبق في دائرة ضخمة ، وبدأ ينتقل في كل الفصول مثل هجرة الطيور الجارحة .

ظلت الاسماك تفتح اعينها وتضرب بزعانفها فقاقيع الماء ، وتاودت الشعب المرجانية ، وانتاب المحار اضطراب مفاجيء .

وهكذا بدات المشكلة .

ابتعدت الطيور ذات الاجنحة البيضاء .

وكف السباحون عن التريض بين الامواج ، ولم يعد موّال واحد يسمع من صياد فقير .

وعندما جاء الشتاء وهبّ عواصف هديرها كصوت القنابل ظلت بقعة الزيت تكتم الانفاس .

وأصبح لون الضباب الذي يتكوم فوق الامواج وفي الافق قاتما مثل الهموم القاتلة .

وذات صباح ايضا ، تعرضت المنطقة الى منخفض جوي ، فهبت عواصف ثلجية ، وانبرى الصقيع فمغنط الامواج العالية ، وحوّلها الى تلال ثلجية .

ثم ان شركة ميكو حصلت على امتياز مدته اربعون عاما للحفر والتنقيب عن الزيت والغاز الطبيعي لاستثمارها ، فحفرت الشركة بين التلال الثلجية ، فلم تجد غير سمكة .. سمكة جميلة وملوّنة ..

ويا للعجب .. كانت عيناها مفتوحتين على سعتهما .

— ٢ —

في زمن الانتداب الانكليزي اصبح عمي مطلوبا للحاكم العسكري في الناصرة ، وقبل ان يتمكن الجنود من تطويق منزله كان يتخفى ويقطع الحدود باتجاه الاراضي اللبنانية .

في ساحة الشهداء ببيروت التقى بعدد كبير من ابناء بلدته الهاربين من البوليس الانكليزي ..

وكانوا جميعا يلبسون مثله الحطة والعقال ..

عمي كان يلبس حطة (قوال) بذلت زوجته جهدا في (تهديبها) من جميع الاطراف بالسنارة ، وعقالا مرعزا مجدولا في حمص ..

ولذلك ، فحين كان يجلس معهم في المقهى بالدماية الروزا كان يضع رجلا فوق اخرى ويطلب نرجيلة ويرد الحطة فوق العقال ..

فما الذي حدث بعد ذلك ؟.

يقول عمي وهو يتنهد : تنبه الفرنسيون الى وجودنا ، واكتشفوا اننا دخلنا دون ان نحصل على اذن بالاقامة فصدر امر الى جهاز المخابرات بمداهمة المقهى واعتقال كل من يلبس حطة وعقالا .

وهكذا القي القبض على من كان موجودا ، واما الذين نجوا من الاعتقال فقد خلعوا الحطة والعقال ، ولبسوا الطرابيش ..

ولكن ذلك لم يطل ، فقد عاد عمي بعد عفو غامض ، ليعمل موظفا في شركة الاي.بي.سي التي كانت تقوم بتمديد الانابيب عبر الصحراء لنقل الزيت .. فلم يخلع الطربوش بعد عودته .. لم يخلع الطربوش !

— ٣ —

محمود ابو السعيد الحيفاوي .. ملاكم .. مصارع ..

وبطل فلسطين في الملاكمة لعام ١٩٤٥ .

بعد النكبة يشتغل دهانا في مخيم اربد ..

يعمل ليلا نهارا ، وتتلطخ ملابسه بالبوية والالوان ، وتفوح منه باستمرار رائحة التربنتين والبنزين والمعجون .

عام ١٩٥٧ تاسس ناد جديد في المدينة ، فتقرر ان يتم افتتاحه بمباراة ملاكمة ومصارعة .

ولان كثيرا من اهالي حيفا كانوا يسكنون معنا في المخيم ، ولان احدهم ، ويعمل استاذا في مدرسة وكالة الغوث ، كان عضوا مؤسسا في النادي ، فقد طرات فكرة ، ان يشارك محمود ابو السعيد الحيفاوي في مباراة الملاكمة .

وتوهجت الامنية في العيون ..

وشم اهالي حيفا في المخيم رائحة الوطن بشكل طازج، واستعادوا سيرة ابنائهم الذين ولدوا ايام حصل الحيفاوي على كاس البطولة.

اما محمود ابو السعيد الحيفاوي الذي عاد الى منزله مبكرا ولم يجد علبة سردين يتعشى بها ، فقد فتح الخزانة المخلوعة ، وحدق بنفسه في المرآة التي تعج بالجروح . هاله البياض الذي دب في شعره .

وارعبه الشحوب والهزال في وجهه وعضلاته . وبينه وبين نفسه قرر الاعتذار .

لكن شباب حارة (عرين الاسود) جاءوا الى منزله ولم يشربوا القهوة الا بعد ان وعدهم بالاشتراك في المباراة .

وهكذا وجد محمود ابو السعيد نفسه وجها لوجه على حلبة الملاكمة امام شاب يتدفق حيوية وفتوة ..

وسمع حوله هتافات حادة ، وتصفيقا يرافقه صفير متواصل .

فتقدم من خصمه متحفزا .

لكنه فوجيء كما لو ان ذراعا حديدية سقطت على فكه .. فترنح . واسودت الدنيا في عينيه .

ركع على ركبتيه ثم جاهد لكي يتمكن من الوقوف .

فعاجله الخصم بضربة اخرى اشد قسوة ، فدار على نفسه ، واحس ان عينيه ستقفزان من محجريهما .

واندفعت الدماء حارة في عروقه ، فثبت نفسه وهجم على خصمه، لكن الخصم عاجله بضربة مؤلمة رمته خارج الحلبة ..

واذ ذاك حدثت داخل القاعة معركة بالكراسي بين المتفرجين.

وفي بيته في المخيم ، وجد محمود ابو السعيد الحيفاوي نفسه وحيدا ووجهه ينزف دما .

فادار على ثيابه تنكة بنزين ، واحرق نفسه .

— ٤ —

١٩٧٥/١/١

بمناسبة الذكرى العاشرة لانطلاقة الثورة ، ساعترف من الان ان الشخص الذي نسف اتابيب التابلاين قبل شهور هو ابن عمي

اسمه الصحيح : محمد رشدي .

اسمه الحركي : ابو الفتوح .

. . . . . .

. . . . . .

ولا باس من ان اذكر انه لا يحب المزاح ، ويحب فتاة اسمها زاهرة ، ويحلم بشكل متواصل في بناء الحزب الثوري ..

دمشق